أثر الجاحظ في تطوير مفهوم الرسالة الأدبية

الدكتورة وديعة طه النجم
الاستاذة المساعدة
في قسم اللغة العربية

لقد اعتدنا أن نسمع – في الاصول القديمة كما في الابحاث المحدثة – ان فن الرسالة تطور ، لكن لا على يد الجاحظ بل على يد عبد الحميد الكاتب ، لأنه أول من أطال الرسالة واول من أطال التحميدات ونوّع فيها ، وانه اول من استعمل الفواصل ... الخ ، حتى اذا جئنا الى عصر الجاحظ ، لم يبق مجال للقول في موضوع الرسالة أو اسلوبها .

ما هو أثر الجاحظ في تطوير مفهوم الرسالة كعمل فني ؟ وما الذي يميز الجاحظ عن بقية الكتّاب المعروفين في هذا الصدد ؟

قبل الدخول في هذا الموضوع لابد أن نحمل في اذهاننا حقيقة مهمة هي :

ان النماذج التي تتوفر لدينا وندرسها كنماذج للرسالة الفنية عبر العصور الاسلامية الاولى ، قبل الجاحظ ، لا تعدو ان تكون رسائل ديوانية كتبها كتّاب اشتغلوا في دواوين الرسالة الخاصة بالخلافة ، وكتبت لحاجة رسمية باسم الخليفة او من ينوب منابه ؛ وان هذه الرسائل كانت في اول امرها تملى على الكاتب املاءً ، ثم تطورت تطوراً بسيطاً فأعطيت للكاتب بعض حرية للتصرف في اختيار الاسلوب الملائم للموضوع المطلوب . وان الرسائل التي ندرسها في العصر الاموي كنماذج للرسالة ، ونسميها تجوّزاً رسالة ادبية ، هي في الواقع كتب رسمية يحاول بعض كتّابها ان يظهر بواسطتها مهارته الفنية في توجيه عبارتها وتنظيمها العام ؛ وهذا هو ما فعله عبدالحميد الكاتب ، ان كان قد قام فعلا بكل ما ينسب اليه . فقد يكون عبدالحميد كاتباً موهوباً لكنه كرّس قابلياته وموهبته لخدمة الرسالة الديوانية ؛ والمصادر لا تذكر شيئاً عنه في كتابة الرسالة يخرج على نطاق الشكل

العام لها ، حتى وان كانت لعبد الحميد رسائل اخوانية خاصة تتدفق حيوية وعاطفة .

فابن خلكان يقول ان عبدالحميد قد مهد السبيل لكتابة الرسائل واتبعه في طريقته كتّاب الرسائل بعده « .... وهو الذي سهّل سبيل البلاغة في الترسّل .. وهو اول من أطال الرسائل واستعمل التحميدات في فصول الكتب فاستعمل الناس ذلك بعده .. »[1] كما ينسب ابن خلكان الى عبدالحميد مجموعاً ضخماً من الرسائل يقول انها بلغت الف ورقة . وقد كان هذا الامر موضع نقاش ايضاً أداره الباحثون ، وأثاروا الشك حوله . والمهم أن ما وصلنا من رسائله لا يعدو بضع عشرة ورقة .

ويرجح البعض ان ابن المقفع كان اسبق من عبدالحميد في هذا المجال ، لكن صلة عبدالحميد بديوان الرسائل جعلته اشهر من سواه وجعلت الناس يقبلون على كتاباته ، فذاع صيته بذلك واشتهر[2] .

ومهما يكن من أمر فكل ما ينسب الى عبدالحميد في فن الرسالة لا يخرج على حقيقتين هما :

١ ـ ان الرسائل التي تخصص عبدالحميد بكتابتها هي رسائل ديوانية لانه نشأ في الديوان وتعلم أساليب الكتابة على أيدي كتّابه وانه سخّر جميع مواهبه الفنية في سبيل تطوير الرسالة الديوانية .

٢ ـ ان اهتمام عبدالحميد ينصبّ على (شكل) الرسالة ، وذلك لضيق مجاله في اختيار موضوعها او التصرّف فيه كما يشاء ، فيكون جهده منصبّاً على تحسين اسلوبها أو تطويره بقدر ما تسمح به موضوعاتها المعيّنة المحدودة .

ولا ينكر ان عبدالحميد قد كتب رسائل غير ديوانية ايضاً ،الا انها لا تخرج في اطارها العام عن الرسائل الاخرى ، بل هي قريبة منها حتى في نوع موضوعها ،

---

(١) ابن خلكان : وفيات (مط السعادة) جـ٢ ص٣٩٤ .

(٢) محمد كرد علي : مقالة في مجلة المجمع العلمي العربي (سنة ١٩٢٩) جـ٩ ص٥١٣ .

كرسالته الى الكتّاب او رسالته في الصيد او رسالته المشهورة الى وليّ العهد ـ وهي بلسان الخليفة ايضاً •

لقد اصبحت رسائل عبدالحميد منهجا لكتّاب الدواوين من بعده يجرون عليه ، وكلما مرّ الزمن زادت شخصيته اهمية عند هؤلاء الكتّاب حتى نجد انفسنا نواجه حقيقة تصبح امراً مسلّماً به عند الكتّاب المتأخرين ويتابعهم فيها بعدئذ دارسو النثر العربي ، تلك الحقيقة هي اعتبار الرسالة الديوانية نثراً فنّياً تدرس اصوله عند كتّاب الدواوين ، ولذلك فالدراسات النثرية تعنى بالرسائل الديوانية وبدراسة فواتحها وخواتمها وأشكالها •• الخ ، حتى العصور المتأخرة • ولابد ان بعض الباحثين في النثر الفني قد أحسّ بشيءٍ من التجنّي على مفهوم النثر الفني وهو يدرس هذه القوالب التي نسميها ـ تجوّزاً ـ فناً • لكن لا خيار للباحث في هذا وليس هناك من نماذج فن الرسالة الادبية غير الرسائل الرسمية ، وشيء لا يغني من الرسائل الاخوانيّة •

* * *

لكن الامر يختلف حينما نأتي الى عصر الجاحظ ، لان الرسالة عند الجاحظ تتخذ سبيلا اخرى ، وبهذا تنتقص الفكرة القائلة بأن المترسلين في الادب العربي هم كتّاب الرسائل الديوانية • ولعل الموقف الحازم الذي اتخذه الجاحظ من طبقة الكتّاب مظهر من مظاهر وعيه بهذه الحقيقة ، فكأنه ينقض هذا الوهم الذي اوشك أن يصبح ـ منذ عصره ـ تقليداً ملتزماً به • فليس الكاتب عند الجاحظ بالضرورة كاتباً في ديوان الرسائل أو كاتباً عند الخليفة ، وليست الرسالة وقفاً على كتّاب الرسائل الديوانية • ولذلك فالرسالة التي يقدمها الجاحظ لا تلتزم بقالب الرسالة المعروف ، بل تخرج عليه خروجاً جريئاً يدفع بها الى المجال الادبي والفكري الواسع • وهكذا يخلق الجاحظ نماذج جديدة تخرج الرسالة من مفهومها الضيق الى الافق العام الوسيع •

لم يعمل الجاحظ في ديوان الرسائل اكثر من ثلاثة ايام في زمن الخليفة

المأمون[٣] ، وما لبث ان ترك الديوان ليكون مؤلفاً وكاتباً يختار طريقته بحرية . لكنّ الجاحظ لا يكتفي بالبعد عن الديوان بل يشن هجوماً ساخراً على الكتّاب وأساليبهم وعلى طبيعة ثقافتهم الشخصية التي تمتاز ـ كما يرى الجاحظ ـ بالمظهر المعجب والمخبر التافه . ويلفت نظرنا ان الامثلة التي يأتي بها الجاحظ من الكتّاب ، شخصيات تعتبر من رواد النثر الفني ـ او في اقل تقدير فن الرسالة ـ عند اكثر دارسي أدب الرسالة . فسالم مولى هشام بن عبدالملك الذي تعدّه اكثر المصادر استاذاً لعبد الحميد الكاتب « كان اشدّ الناس غلطاً واضعفهم رأياً . وكان هشام يحضره فيسمع من ضعفه ويستميحه الرأي يهزأ به »[٤] .

اما عبدالحميد نفسه فقد « كان معلماً ، وبتحامله على نصر بن سيّار انتقضت خراسان وزال ملك بني مروان »[٥] .

اما ابن المقفع الكاتب المعروف فهو في غزارة علمه وكثرة روايتـــه « كما قال الله عزّ ذكره ـ : كمثل الحمار يحمل اسفاراً ، قد أوهنه علمه وأذهله حلمه وأعمته حكمته وحيّرتْه بصيرته »[٦] .

فالجاحظ ينظر الى الرسالة نظرة جديدة تأخـذ بحرية الاختيار أولا كما تأخذ نفسها بثقافة واسعة شاملة ، وكتّاب الرسائل الرسمية ـ في نظره ـ بعيدون عن هذا :

« .... لا يحضر كاتب الرسائل لنائبة ولا يفزع اليه في حادثة فاذا أبرم الوزراء التدبير ووقفوا منها على التقدير ، طرحت اليه رقعة بمعاني الامر لينسـق فيه القول ، فاذا فرغ من نظامه واستوى له كلامه احضر له محرراً فجلس في اقرب المواطن الى الخليفة وامتع المنازل من المختلفة فاذا انقضى ذلك فهما والعوام سواء »[٧] .

---

(٣) ياقوت : معجم الادباء (ط المأمون) جـ٦ ص٧٢ .
(٤) رسالة فى ذم اخلاق الكتاب : فى ثلاث رسائل (تحقيق فنكل) ص٤٧ .
(٥) المصدر نفسه .
(٦) المصدر نفسه ، ص٤٤ .
(٧) المصدر نفسه ، ص٤٩ .

وتنعكس نظرة الجاحظ بحرية الاختيار وسعة الثقافة في قولةٍ له جاءت وهو في معرض الحديث عن التنويع في الادب والمعرفة ، اذ يميّز الجاحظ هنا بين صاحب العلم وصاحب الحرفة الذي يلتزم بنمط واحد من المعرفة ، فيقول :

« لأن النحوي الذي لا امتاع عنده كالنجار الذي يدعى ليعلّق باباً وهو أحذق الناس ، ثم يفرغ من تعليقه ذلك الباب فيقال له : انصرف . وصاحب الامتاع يراد في الحالات كلها »[٨] .

وكم بين صورة هذا النجّار ، وكاتب الرسائل الذي ذكره الجاحظ في الفقرة السابقة من شبه !

ومع هذا فقد وردت اقوال للجاحظ في (بيانه) تدل على اعجاب بأساليب الكتّاب وطرائقهم ؛ وكأنّ الجاحظ ينقض رأيه بنفسه ، اذ يقول :

« قال ابو عثمان : أما أنا فلم أر قطّ امثل طريقة في البلاغة من الكتّاب فانهم قد التمسوا من الالفاظ ما لم يكن متوعّراً وحشياً ولا ساقطاً سوقياً ...[٨] »

واظن ان تفسير هذين الموقفين هو في تفاوت درجات الكتّاب في عصره ، فقد دخل في الكتّاب جماعة وهم يجهلون اصول الكتابة حتى قيل عنهم : « الكتّاب قليل والمتسمّون بالكتّاب كثير .. »[١٠] .

يضاف الى ذلك ان الجاحظ كان يخشى ان تصبح الكتابة الديوانية مثالا يحتذى عند الناس ، وهي على حالٍ من افتقار في التنويع موضوعاً واسلوباً . الا ان ذلك لم يمنع الجاحظ ان يتشبه في اول حياته الادبية بمشاهير الكتّاب المعروفين كابن المقفع او سهل بن هرون ، فيكتب رسائله باسمائهم وينسبها اليهم ، لتذيع بين الناس وتشيع[١١] . والسبب هنا واضح الا وهو اقبال الناس على هؤلاء لشهرتهم .

---

(٨) البيان والتبيين : (ط هرون) ، جـ١ ص ٤٠٣ .

(٩) المصدر نفسه : جـ١ ص١٣٧ .

(١٠) عبدالله البغدادى : كتاب الكتّاب المنشور فى مجلة :
B. E. O. vol. XIV (1952—4) :
ص١٢٨ ـ ص١٥٣ (دمشق)

(١١) الجاحظ : ر. فى فصل ما بين العداوة والحسد : مجموعة الجاحظ (ط الساسى) ص١٠٨ ـ ١٠٩ .

لكن الجاحظ ـ وهو يستعين بثقافة واسعة ومتنوعة ، وبحرية في الاختيار ـ يخرج بالرسالة من نطاق الديوان الى مجال واسع من الاشكال والموضوعات التي لم يجرؤ كاتب سابق عليه في ادخالها في الرسالة • ورسائله خطوة كبيرة نحو فن المقالة الذي يشيع فيما بعد في الادب العربي •

وسأبين ـ قدر ما يسمح به المجال هنا ـ جانبين من جوانب هذا التطور في فن الرسالة عند الجاحظ ؛ هما :

١ ـ جانب لمضمون او الموضوع •

٢ ـ جانب الشكل أو الاسلوب •

* * *

المضمون او الموضوع

ان أول ما يلفت نظرنا في العدد الضخم من الرسائل التي كتبها الجاحظ ، أنه لم يكد يترك موضوعا يخطر على بال دون أن يطرقه أو يدير حوله رسالته ، فقد كتب الجاحظ كتباً وكتب رسائل ولا تختلف رسائله من حيث طبيعة الموضوع عن كتبه الا بأشياء معلومة أهمها اقتصاره في الرسالة الواحدة على موضوع واحد في الغالب وعدم الميل الى الاستطراد كثيرا او الاطالة ، بينما كانت كتبه موساعات ادبية علمية ، يطرق في الكتاب الواحد اشتاتا من الموضوعات •

لقد ادخل الجاحظ الموضوعات العجيبة في مضمون الرسالة بجرأة يحسد عليها ، فلم تقتصر رسائله على الدين والفلسفة والاجتماع ، بل لقد حاول ادخال موضوعات هي من صلب فنون الشعر وموضوعاته ؛ حتى اذا جاء ليكتب في موضوعات طرقتها الرسائل قبله وعدّت من صلب عملها نجده يتفنن فيها تفننا ، فيخرج بها عن المألوف في كتابة الرسالة قبله • فهو يكتب ـ مثلا ـ رسالة في الشكر ، يقصد بها تقريض وزير المتوكل وشكر نعمه لديه ـ كما يقول القلقشندي[١٢] ـ فاذا به يخرج عن موضوع الشكر الى فلسفة الشكر ويصنّفه الى مراتب ويبحث في اصوله •

(١٢) صبح الاعشى (ط تراثنا) جـ١٤ ص١٧٣ •

أو يكتب رسالة في المعاد والمعاش الى محمد بن احمد بن ابي دؤاد فاذا به يفصل في امور تتصل بفلسفة المعتزلة وكأنه يكتب بحثا في الموضوع ؛ بل لقد أشار في الرسالة نفسها الى انه جمع مادتها من تصفح مصادر الاوائل ودراستها ، قائلا :

« ولم أزل ـ ابقاك الله ـ بالموضع الذي قد علمت من جمع الكتب ودراستها والنظر فيها ، ومعلوم أن طول دراستها انما هو تصفح عقول العالمين والعلم بأخلاق النبيين وذوى الحكمة من الماضين والباقين من جميع الامم وكتب اهل الملل ، فرأيت ان أجمع لك كتابا من الادب جامعا لعلم كثير من المعاد والمعاش اصف لك فيه علل الاشياء وأخبرك بأسبابها وما اتفقت عليه محاسن الامم .... »(١٣) .

فموضوع الرسالة واسع يصلح أن يكون في مقالة أو كتاب ، وهذا ما يمكن أن يقال عن اكثر رسائله التي بين ايدينا .

ان الامر الذي هيأ للجاحظ ان يفكر في هذه الموضوعات المختلفة المتعددة الجوانب ـ حتى في رسائله القصيرة فضلا عن كتبه الضخمة له اسباب ، من اهمها :

١ ـ اتصال الجاحظ بالحياة العباسية بجميع مظاهرها السياسية والاجتماعية والفكرية ، فتهيأ له الاتصال بشخصيات من العلماء والادباء ممن اختلفت مذاهبهم وآراؤهم في المسائل ، وكان لهم شأن في الخلافة العباسية . وكان اتصال الجاحظ بهؤلاء اتصالا شخصيا ، واتصال صداقة او منادمة ، او اتصال طاعة المرؤوس . ولقد كتب الجاحظ اكثر رسائله موجهة الى هؤلاء ، ولذلك نجده يجعل الرسالة وسيلة من وسائل عرض الفكرة ومناقشتها والنظر العميق في الامور . فيجتمع في رسائله موضوع المقالة الى اسلوب الرسالة .

٢ ـ ان الجاحظ معتزلي بميله وعقيدته ، والمعتزلة ترى طريق النقاش والجدل وسيلة للتوصل الى حقائق الامور . والجاحظ لا يفوت فرصة دون ان يستغل هذه القابلية في نفسه والى ابعد مدى . ولقد اتبع سبيل المحاورة

---

(١٣) ر. في المعاد والمعاش ، مجموع رسائل الجاحظ (ط. كروس ـ الحاجرى) ص ٦ .

والخطاب ، حتى وان اضطره ذلك الى تخيل شخص يخاطبه او يوجه اليه كلامه .

ولقد صورت لنا بعض رسائله صورا حية لما كان يدور بين المعتزلة وخصومهم من مجادلات تفصيلية ، ولذلك يضعها بصيغة (قلنا له) و (قال لنا ..) كما فعل في رسالته الموسومة (في خلق القرآن) التي دار فيها الجدل بين المعتزلة وابن حنبل(١٤) .

وهذا يقودنا الى الحديث عن طبيعة تطويع الجاحظ لهذه الموضوعات .

٣ ـ الجاحظ بطبيعته وبميله اديب لا يلتزم طريقة معينة في الكتابة . وهو يتسامح مع نفسه في استعمال اي تعبير تقتضيه الفكرة التي يريد أن يؤديها ، وقلمه غزير موات لا يجبن امام الفكرة بل يطاوعها بمرونة مدهشة . ولقد حاول ابن المقفع قبل الجاحظ ان يخضع العبارة للفكرة ولم ينجح نجاحا تاما ، لان ابن المقفع تعلم لغتين كانتا تستويان في منزلتهما من ثقافته الشخصية هما الفارسية اولا ثم العربية . فكانت احداهما تدخل الضيم على الاخرى عند التعبير او الكتابة ، فصعب اسلوبه وكانت عبارته تسلك مسلكا وعرا تظهر فيها آثار الترجمة بوضوح . وكثيرا ما يلجأ ابن المقفع الى الاسلوب التعليمي المباشر الذي يؤدي به الى استعمال الامر والنهي في خطابه .

لكن ما فعله الجاحظ كان شيئا آخر . لقد استوعب الجاحظ شيئا عظيما من عناصر الثقافات الاجنبية ونقل وخلط بين مصادر عربية واجنبية ، فأدى ذلك الى غزارة في المادة وتنويع في الحديث دون أن يشوب عبارته شيء من لغة اخرى ، لأن الجاحظ ـ كما ارجّح ـ كان ينقل عن اصول مترجمة من قبل غيره في الغالب ، وقلّما يترجم بنفسه(١٥) . فاذا نظرنا الى عبارته نجدها تخرج على المألوف

---

(١٤) الجاحظ : رسالة في خلق القرآن في مجموعة عبيد الله بن حسان : المتحف البريطاني (Suppl. 1129) ورقة ١٢١ أ ـ ١٢٩ ب .

(١٥) ينقل الجاحظ احيانا شعرا بالفارسية او عبارات فارسية ويقوم بترجمتها الى العربية (البيان والتبيين جـ١ ص١٤٢ ـ ١٤٤) ولكن لا نستطيع مع ذلك ان ندعي المامه التام بالفارسية .

لانها مثقلة بالمعاني الغزيرة الناضجة ، وقد لا تفي عبارة واحدة بالمعنى فيضطر الرجل الى التكرار لكي يفي بحق تلك المعاني الجديدة على اللغة العربية ، وهذا ما جعله في كثير من الاحيان يكرر المعنى الواحد بألفاظ مختلفة أو عبارات متوازنة • فهو يقوم بشرح افكاره التي يجدها جديدة على الالفاظ والتعابير العربية •

ويقصد الجاحظ الى استغلال قابلياته العقلية في توجيه الخطاب في الرسالة ؛ لكنك لا تحس بتلك التعليمية التي تمتاز بالامر والنهي • وخير مثال على ذلك ، هذا الخطاب الذي يعاتب الجاحظ فيه محمد بن عبدالملك الزيات على غضبه عليه• فيبدأ بتعريف الغضب وأسبابه فيقول :

« •••• ولولا ان الشيطان يريد الاّ يخلو من عمله ولا يقصر في عادته لما وسوس الى الغضبان ولا زين له ولا أغراه ولا فتح عليه ، اذ كان قد كفاه وبلغ اقصى مناه ••• » •

وبعد حديث طويل في تحليل الغضب ودرجاته ، يقول :

« •• فلا تقف ـ حفظك الله ـ بعد مضيّك في عقابي التماساً للعفو عنّي ، ولا تقصّر عن افراطك من طريق الرحمة لي • ولكن قف وقفة من يتهم الغضب على عقله والشيطان على دينه ، ويعلم ان للعقل خصوما وللكرم اعداءً ، وان من النَصَف أن تنتصف لعقلك من خصمه وتنتصف لكرمك من عدوه ، وتُمسك امساك من لا يبرّي الهوى من الخطأ ؛ ولا تنكر لنفسك ان تزلّ ولعقلك أن يهفو ، فقد زلّ آدم عليه السلام وهفا ، وعصا ربّه وغوى وغرّه عدوّه وخدعه خصمه ••• »(١٦) •

ولا تخفى الطبيعة الجدليّة ، والمقدّمات ونتائجها في هذا القول •

ورغم ان الجاحظ قد وجّه رسائله الى شخصيات معينة كالزيات وابن ابي دؤاد والحسن بن وهب ••• الخ ، لكن يبدو كأنه قد قصد ان يضع هذه الرسائل لطبقة اكبر من الناس ؛ فموضوعاتها تصلح للمتعلم والمتكلم ، وكأن الجاحظ يتخذ

(١٦) الجاحظ : فى الجد والهزل : مجموعة رسائل الجاحظ (كروس ـ الحاجرى) ص٨٤ •

الرسالة وسيلة من وسائل عرض افكاره وقابلياته ، ولذلك لن نكون بعيدين جدا عن الصواب اذا قلنا بأن رسائله فتحت الطريق الى « فن المقالة » في الادب ، لأن موضوعاتها وطريقة عرضها تصلح لهذه الغاية .

على ان للجاحظ رسائل قد تشذ على كل مألوف في الرسالة او المقالة ولعل اغرب هذه الرسائل رسالته التي وجهها الى أحمد بن عبدالوهاب وهي (التربيع والتدوير) . فهي شيء فريد بين الرسائل الادبية لم يُسبق الجاحظ الى كتابة مثلها ، بل لم يلحقه احد في كتابة شبيه بها الا اذا نظرنا الى جانب السخرية والنقد فيها وفي كل من رسالتي ابن شهيد الاندلسي (التوابع والزوابع) أو ابي العلاء المعرّي (الغفران) .

فرسالة التربيع والتدوير جديدة في اسلوبها وموضوعها والقابليات التي تكشف عنها في كاتبها . فموضوعها ـ كما يدعي الجاحظ ـ هو رد الاعتبار للعلم والمعرفة من ادعاء المدعين ؛ لأن احمد بن عبدالوهاب الكاتب المعاصر للجاحظ قد ادعى لنفسه ما ليس لها فاضطر ذلك الجاحظ الى ان يكتب اليه هذه الرسالة يفضحه بأن يوجه اليه مسائل يعجز عن الاجابة عليها . فالرسالة هي عبارة عن جملة مسائل أثارت فضول الجاحظ وبعض معاصريه ؛ وقد أجاب الجاحظ نفسه على قسط كبير منها في اماكن مختلفة من كتبه ومؤلفاته . ولذلك نجده يفخر على احمد بن عبدالوهاب في الرسالة قائلا :

« وقد سألتك وان كنت اعلم انك لا تحسن من هذا قليلا ولا كثيرا فان اردت ان تعرف حق هذه المسائل وباطلها وما فيها خرافة وما فيها محال ، وما فيها صحيح وما فيها فاسد ، فألزِم نفسك قراءة كتبي ولزوم بابي وابتديء بنفي التشبيه والقول بالبداء واستبدل بالرفض الاعتزال .. »(١٧)

اما الفن الذي طعم به الجاحظ النثر العربي في هذه الرسالة ، فقد كان معروفا كفنٍّ من فنون الشعر لا النثر ؛ واعني به فن الهجاء . ولست اظن كاتبا سابقا على الجاحظ قد تعرض لهذا الفن نثرا ، بل الشائع في الادب العربي ان

(١٧) التربيع والتدوير (ط شارل بيلا) ص٩٧ فقرة : ١٨٩ .

الهجاء فن من فنون الشعر • هذا فضلا عن ان الهجاء في هذه الرسالة يمتاز على الهجاء في الشعر العربي بالميل الى السخرية وتجنب السب والشتم المباشر الذي الفناه في ادب النقائض مثلا •

فالهجاء في هذه الرسالة يعتمد على افتعال المناقشة واظهار الاحترام الشديد الذي يدل على ضده ؛ وعلى الجمع بين المتناقضات التي لا يمكن ان تجتمع في مباديء العقل والمنطق ، لكي يتوصل عن هذه السبيل الى رسم صورة عجيبة تثير الضحك وتثير السخرية فتشويه الصورة الواقعية للمهجو تعتمد على هذا المبدأ ، وقد رأينا شيئا شبيها بهذا فيما بعد في هجاء ابن الرومي في الشعر العباسي •

فالجاحظ اذن قد فتح طريقا في الرسالة العربية لكي تتضمن شتى الفنون التي لم تعهدها من قبل ، كل ذلك باسلوب المخاطبة الذي نألفه عادة في كتابة الرسالة ، مما يوحي باستعانة الجاحظ قصدا بهذا الفن الادبي المعروف •

الاسلوب أو الشكل

لقد نُعتت مجموعة ضخمة مما كتبه الجاحظ من مقالات قصيرة بنعت (رسالة) • ولقد ظهر لنا في الحديث عن موضوعات هذه الرسائل انها لم تقتصر على صنف معين من الموضوعات ، بل طرقت كل موضوع ممكن • على ان هناك امورا تجمع بين رسائل الجاحظ والرسائل العامة اهمها انها توجه الى شخص معين ، ولذلك يقوم الجاحظ بكتابتها باسلوب خطابي يوحي بأنها كتبت موجهة الى شخص ما ؛ فضلا عن افتتاحها بالحمد والدعاء وختامها به ايضا • والحمد ليس من اسلوب الرسائل وحسب بل هو فى مفتتح كل كتابة وفي اول كل مخاطبة ، ولذلك لا يمكن ان نخص به الرسائل فقط • وقد قال الجاحظ نفسه في ضرورة الحمد بأن الله قد جعله مستفتح كتابه وآخر دعوى اهل جنته[١٨] •

ومع ذلك لم يلتزم الجاحظ في كل هذه الامور قاعدة معينة ، فأول ما يلفت

---

(١٨) رسالة الجاحظ الى ابي الفرج الكاتب : رسائل الجاحظ (ط السندوبي) ص ٣٠٤ •

نظرنا ان فاتحة الرسالة عنده كثيرا ما تستخدم كوسيلة للتعريف بالموضوع ، وكأنها عنوان او تلخيص للرسالة التي يقدمها[١٩] .

وقد يعدل الجاحظ بالدعاء عن جهته التي يُقصد به اليها ويستعمله لغايات اخرى ، كما فعل في مخاطباته لاحمد بن عبدالوهاب في رسالة التربيع والتدوير ، اذ جعل الدعاء في اكثر ذكره له وسيلة لتوكيد سخريته . فهو يلهج بالدعاء مع السخرية ليزيد من أثرها ، فيقول مثلا :

« قد ـ والله ـ عافانا الله بك وابتلى وانعم بك وانتقم ؛ فترحا لمن زهد فيك ، وسقيا لمن رغب اليك ، وويل لمن جهل فضلك بل الويل لمن انكر فضلك ! . انك ـ جعلت فداك ـ كما لم تكن فكنت فكذا لا تكون بعد أن كنت وكما زدت في الدهر الطويل فكذا تنقص في الدهر الطويل ، اذ كل طويل فهو قصير ، وكل متناه فهو قليل ، فاياك ان تظن أنك قديم فتكفر ، واياك ان تنكر انك محدث فتشرك ! »[٢٠] .

أو يقول مثلا :

« .. قد وجدتك ـ جعلت فداك ـ خفت ان تكون ابن صائد ورجوت ان تكون الدجال ، ولعلك دابّة الارض ! وما أدري لعلك شوشي ولست بحمد الله الخضر .. »[٢١]

أو يقول :

« .. وليس حسنك ـ ابقاك الله ـ الذي تبقى معه توبة أو تصح معه عقيدة أو يدوم معه عهد ... هو ـ اعزّك الله ـ شيء ينقض العادة ويفسخ المنّة .. »[٢٢]

وهكذا يمضي الدعاء في الرسالة على هذا المنوال في مناسبات لا تحصى ، وهذا الدعاء لا يزيد السخرية الا شدة .

---

(١٩) أمثلة في ر. في بني امية ، أو في الجد والهزل . أو المعاد والمعاش . أو التربيع والتدوير وغيرها .

(٢٠) التربيع والتدوير ص ٤٠ ـ ٤١ ، الفقرة : ٧١ .

(٢٢) المصدر نفسه ص٣٧ . الفقرة : ٦٥ .

(٢٢) المصدر نفسه ص٦٠ . الفقرة : ١٠٧ .

لقد كتب الجاحظ كثيرا من رسائله في سبيل الرد على آراء الفرق المختلفة ، وهو ـ وان وجهها الى شخصيات من رجال الدولة العباسية ـ أراد بها مجموعا اكبر من الناس ـ كما قلت سابقا ـ . ولذلك فاسلوب المحاججة والجدل هو الاسلوب الذى يختاره الجاحظ لهذه الرسائل ، وقد يوجه الجاحظ الحجة الى خصم معين ، فيعرض رأي ذاك الخصم اولا ، ثم يرد عليه بحجج المعتزلة التي يذهب الجاحظ مذهبها . وقد طغى هذا الاسلوب على الرسائل التي وجهها الى الخلفاء العباسيين ، سواء كانوا ممن يؤيد الاعتزال ـ كالمأمون أو المعتصم ـ أو ممن ينقضه كالمتوكل . فرسالته في الرد على النصارى توجه الى المتوكل وكأن المتوكل قد فصل للجاحظ في ذكر حجج النصارى في كتاب سابق ، ولذلك يكرر الجاحظ في الرسالة قوله (وذكرتم انهم قالوا ـ اي النصارى ـ) أو (وزعمتم انهم قالوا ..) أو (وسألتم عن قولهم ...)[٢٣] .. واكثر رسائله في الفرق لها هذا الطابع الجدلي .

ومع ذلك لا نستطيع ان نلزم الجاحظ باسلوب معين في جميع رسائله ونكون على حق في هذا التعميم . فقد امتاز ـ قبل كل شيء ـ بحرية واسعة في الاختيار ، ولذلك فالموضوع أو الفكرة هي التي تملي عليه اسلوبه بالدرجة الاولى . ولذلك تجيء بعض رسائله وكأنها شعر منثور ، تضاهي الشعر العربي . فهذه رسالته في مدح النبيذ تحوي وصفا للخمر قد لا نجده الا عند أشهر شعراء الخمر ممن شربها واختص بوصفها ، يقول في وصف النبيذ :

« .. فان القدح الثاني أسهل من الاول ، والثالث أيسر والرابع الذ والخامس أسلس والسادس أطرب الى أن يسلمك الى النوم الذي هو حياتك أو أحد أقواتك . ولا خير فيه اذا كان اسكاره تغلبا وأخذه بالرأس تعسفا حتى يميت الحس بحدته ويصرع الشارب بسورته ويورث البهر بكظته ولا يسري في العروق لغلظته ولا يجري في البدن لركوده ولا يدخل في العمق ولا يدخل في الصميم ،

---

(٢٣) ر. فى الرد على النصارى : ثلاث رسائل (فنكل) : ص١١ . ص١٢ . ص٢٥ .. الخ .

ولا والله حتى يغازل العقل ويعارضه ويداعبه ويخادعه فيسره ثم يهرّه ، فاذا امتلأ سرورا وعاد ملكا محبورا خاتله السكر وراوغه وداراه وماكره وهازله وغانجه ..[٢٤] » .

ثم يعود الى تفضيل النبيذ على سواه من الاشربة وتظهر هنا قابلية مدهشة على الوصف والتشبيه الذي لا يقبل بالقريب الظاهر بل يذهب الى المعاني اللطيفة في العقل . وله طريقة جميلة في التشبيه يستعمل فيها فعل (أخذ) بدلا من ادوات التشبيه المعروفة ، يقول :

« .. وخير الاشربة ما جمع المحمود من خصالها وخصال غيرها . وشرابك هذا قد أخذ من الخمر دبيبها في المفاصل وتمشيها في العظام ولونها الغريب ، وأخذ برد الماء ورقة الهواء وحركة النار وحمرة خدك اذا خجلت ، وصفرة لونك اذا فزعت وبياض عارضيك اذا ضحكت ، وحسبي بصفاتك عوضا من كل حسن وخلفا من كل صالح .. »[٢٥] .

وهذا احتيال على المدح عجيب ... !

اما سخرية الجاحظ وروح الفكاهة والدعابة في اسلوبه فحدث عنها ولن تلام . فمنها دعابة خفية وتعريض ظريف ، ومنها صريحة جريئة . وقد نجد شيئا من مداعباته خلال الاحاديث والنوادر التي تنقل عنه ، لكن ما نجده في ثنايا اسلوبه من كتبه او رسائله لا يعوض بالروايات التي تروى عنه . وخير مثل هذه الخاتمة الظريفة لهذه الرسالة التي يخاطب فيها الحسن بن وهب الذي كان قد أهدى اليه شيئا من نبيذه ، يقول :

« .... وأنا رجل من بني كنانة ، وللخلافة قرابة ولي فيها شفعة . وهم بعد جنس وعصبة . فأقل ما أصنع ان أكثرت لي منه [اي من النبيذ] أن أطلب الملك ، وأقل ما يصنعون بي أن أنفى من الارض . فان اقللت فانك الولد الناصح . وان اكثرت فانك الغاش الكاشح ، والسلام »[٢٦] .

---

(٢٤) ر. في مدح النبيذ . رسائل الجاحظ (ط السندوبي) ص ٢٩٠ .
(٢٥) المصدر نفسه .
(٢٦) المصدر نفسه ص٢٩١ .